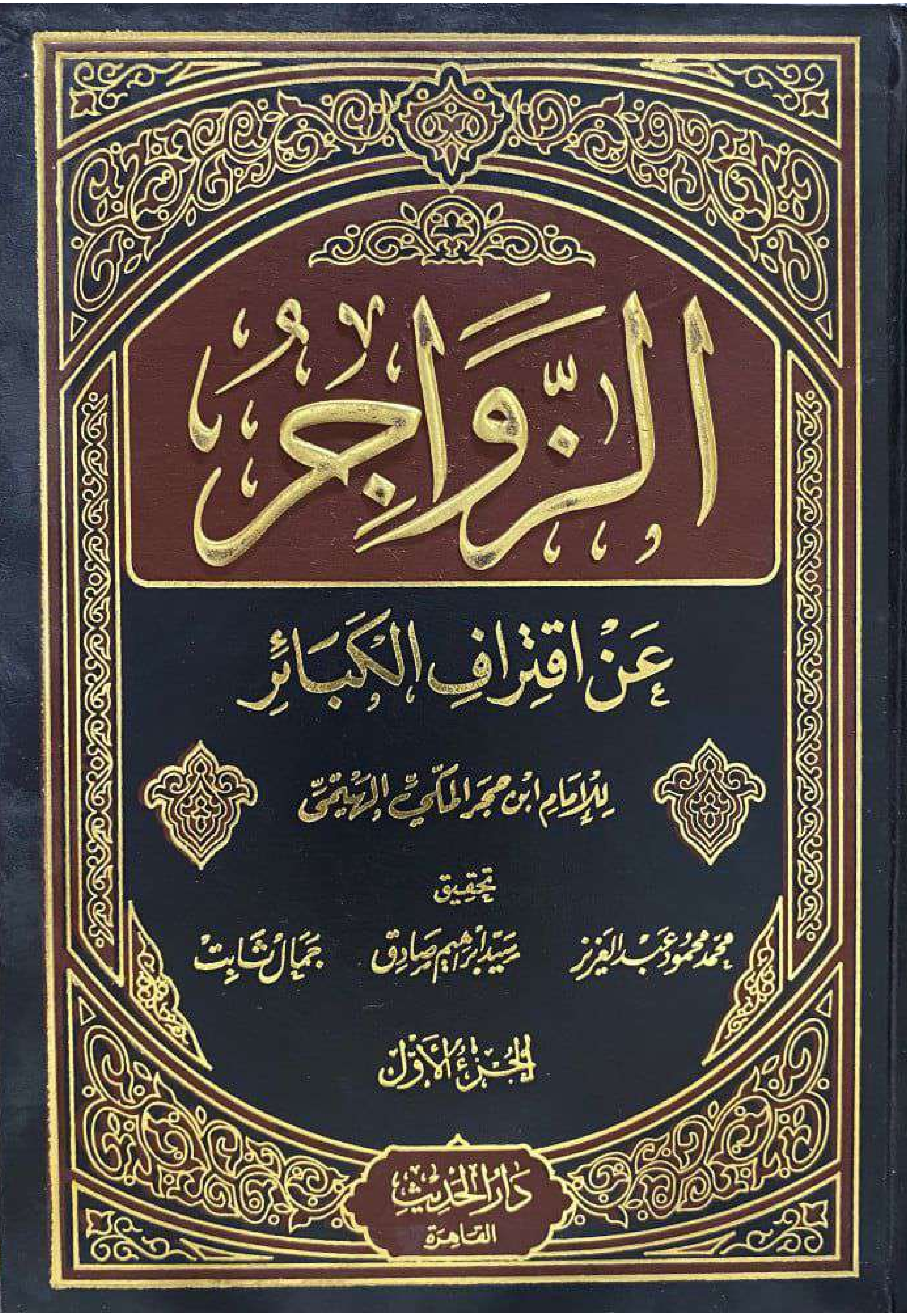


ردود الصوفي ابن حجر الهيتمي على ابن عربي في قوله بإيمان فرعون!

الكاتب

أحمد بن حجر الهيتمي




الزواجر
عن اقتراف الكبائر
للإمام ابن حجر المكي الهيتمي
تحقيق
محمد محمود عبد العزيز
سيد إبراهيم صادق
جمال ثابت
الجزء الأول
دار الحديث
القاهرة

وأخـذ علماء الأمـة

ومجتـهدوها الذين عليهم المعول من الآيـة الأولى أعنى قوله تعالى: ﴿فَلَمْ يَكُ يَنفَعُهُمْ إِيمَانُهُمْ لَمَّا رَأَوْا بَأْسَنَا﴾ (غافر: ٨٥) إجماعهم على كفر فرعون، ورواه الترمذى فى تفسيره فى سورة يونس عليه السلام من طريقين وقال فى إحداهما: حديث حسن، وفى الأخرى: حديث حـسن غريب صـحيح وروى عن ابن عـدى والطبرانى أنه ﷺ قـال: «خلق الله يحيى بن زكريا فى بطن أمه مؤمنًا وخلق فرعون فى بطن أمه كافرًا»[٤٢] وأما ما حكاه الله تعالى عنه فى سورة يونس عز قائلاً: ﴿حَتَّىٰ إِذَا أَدْرَكَهُ الْغَرَقُ قَالَ آمَنتُ أَنَّهُ لا إِلَٰهَ إِلاَّ الَّذِي آمَنَتْ بِهِ بَنُو إِسْرَائِيلَ وَأَنَا مِنَ الْمُسْلِمِينَ ﴿٩٠﴾﴾ (يونس) فهو لا ينفعه بدليل قوله تعالى عقب ذلك: ﴿آلآنَ وَقَدْ عَصَيْتَ قَبْلُ وَكُنتَ مِنَ الْمُفْسِدِينَ ﴿٩١﴾﴾ (يونـس) وسبب ذلك مع أنه كرر الإيمان مرتين بناء على فتح أن وثلاثًا بنـاء على كسرها، أنه إنما آمن عند نزول عذاب الاستـئصال له ولقومه، والإيمان حينئذ غير نافع لما تقرر، وأيـضًا فإيمانه إنما كان تقليدًا محضًا بدليل قوله: ﴿إِلاَّ الَّذِي آمَنَتْ بِهِ بَنُو إِسْرَائِيلَ﴾ فكأنه اعترف بأنه لا يعرف الله وإنما سمع من بنى إسرائيل أن للعالم إلهًـا فآمن بذلك الإله الذى سمع بنى إسرائيل يقـرون بوجوده فآمن به، وهذا هو مـحض التقليـد على أنه كان دهـريًا منكر لوجود الصـانع، ومثل هذا الاعـتقـاد الخبيث البالغ نهاية القبح والفحش لا يزول بتقليد محض، بل لا بد فى مزيله من أن يكون

(*)ذكره العجلونى فى كشف الخفـا (١/ ٢٥٥) وقال: قال أحمد: لا أصل له وأورده ابن الجوزى فى الموضوعات (١/ ٢٥٦) وقال: موضوع بلا شك، وقـال الذهبى فى تلخيص الموضوعات: أسانيد حديث رد الشمس ساقطة ليست بصحيحة وانظر الضعيفة للألبانى (٩٧١) فإن فيها فوائد.

(**)أخرجه مسلم (١/ إيمان/ ٣٤٧/ ص ١٩١) وأبو داود (٤/ ح ٤٧١٨) من حديث أنس رضي الله عنه.

(٤٢)ذكره الهيثمى فى المجمع (٧/ ١٩٣) وقال: رواه الطبرانى وإسناده حسن.

برهانًا قطعيًا، وعلى التنزل فلا بد فى إسلام الدهرى ونحوه ممن كان قد دان بشىء أن يقر ببطلان ذلك الشىء الذى كفر بـه، فلو قال: آمنت بالذى لا إله غيره، لم يك مسلمًا كما مر وفرعـون لم يعترف ببطلان مـا كان كفر به من نفى الصـانع وإلهية نفسـه وقوله: ﴿إِلاَّ الَّذِي آمَنَتْ بِهِ بَنُو إِسْرَائِيلَ﴾ (يونس: ٩٠) لا يدرى ما الذى أراد به، فـإذا صرح الأئمة فى آمنت بالذى لا إله غيـره بأنه لا يحمل الإيمـان لاحتمالـه، فكذا فيمـا قاله، وعلى التنزل فالإجـماع منعقـد على أن الإيمان بالله مع عدم الإيمـان برسول الله ﷺ لا يصح، فلو سلمنا أن فرعون آمن بالله إيمانًا صحيحًا فهو لم يؤمن بموسى عليه السلام ولا تعرض له حينئذ أصلاً فلم يكن إيمانه نافعًا، ألا ترى أن الكافر لو قال ألوفًا من المرات أشهد أن لا إله إلا الله أو الذى آمن به المسلمون، لا يكون مؤمنًا حتى يقـول: وأشهد أن محمدًا رسول الله، **فإن قلت:** السحرة لم يتعرضوا فى إيمانهم للإيمان بموسى ومع ذلك قبل إيمانهم، **قلت:** ممنوع، بل تعرضـوا لذلك بقولهم: ﴿آمَنَّا بِرَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿١٢١﴾ رَبِّ مُوسَىٰ وَهَارُونَ ﴿١٢٢﴾﴾ (الأعراف) على أن إيمانهم حينئذ إيمان بمعجزة موسى وهى العصا التى تلقفت ما صنعوا، والإيمان بالله مع الإيـمان بمعـجزة الرسول إيمـان بالرسول، فـهم آمنوا بموسى صـريحًا بخلاف فـرعون لم يؤمن به صريحـًا ولا إشارة، بل ذكره بنى إسـرائيل دون موسى مع أنه الرسول الحق العارف بالإله ومـا يليق به والهادى إلى طريقه، فيه إشـارة ما إلى بقائه على كفره به، فـإن قلت: قد صرح الإمام القاضى عـبد الصمد الحنفى فى تفسـيره أن مذهب الصوفية أن الإيمان ينتفع به ولو عند مـعاينة العذاب، وهذا يدل على أنه مذهب قديم لأن القاضى المذكور وهو متقدم كان مـوجودًا أوائل المائة الخامسة فى سنة ثلاثين وأربعمائة، وقال الذهبى: الحد الـفاصل بين العلماء المتقـدمين والمتأخريـن رأس القرن الثالث وهو الثلاثمائة وإذا كان مذهب الصوفية ذلك فكـيف ساغ الإجماع على كفر فرعون؟ قلت: لو سلمنا صحة ذلك عن الصوفـية الذين هم من أهل الاجتهاد المعول عليـهم حتى لا ينعقد الإجماع مع مخالفتهم لم يرد ذلك علينا ولم يختـل به ما قدمنا من إجماع الأمة على كفر فرعون، لأنا لم نحكم بكفره لأجل إيمانه عند اليـأس فحسب بل لما انضم إليه من أنه لم يؤمن بالله إيمانًا صحـيحًا، وعلى التنزل فهو لم يؤمن بموسى أصـلاً فلا يرد ما حكى عن مذهب الصوفية على ما قررنا، فإن قلت: قـد قال الإمام العارف المحقق محيى الدين ابن العربى (*) فى فتوحاته المكية بصحة الإيمان عند الاضطرار، وأن فرعون مؤمن فإنه قال ما

(*) محيى الدين أبو بكر محـمد بن علىّ بن محمد بن أحمد الطائى الحـاتمى المرسى بن العربى نزيل دمشق سكن الروم مدة، وكان ذكيًا كثير العلم علق كثيرًا فى تصوف أهل الوحدة ومن أردأ تواليفه =

حاصله: لما حال الغرق بين فرعون وبين أطماعه لجأ إلى الله تعالى وإلى ما أعطاه باطنه مما كان عليه من الذلة والافتقار فقال: ﴿آمَنتُ أَنَّهُ لا إِلَهَ إِلاَّ الَّذِي آمَنَتْ بِهِ بَنُو إِسْرَائِيلَ﴾ (يونس: ٩٠) لرفع الإشكال كما قالت السحرة لما آمنت: ﴿آمَنَّا بِرَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿١٢١﴾ رَبِّ مُوسَىٰ وَهَارُونَ ﴿١٢٢﴾﴾ (الأعراف) لرفع الارتياب وإزاحة الإشكال ثم قال: ﴿وَأَنَا مِنَ الْمُسْلِمِينَ ﴿٩٠﴾﴾ فخاطبه بلسان العتب ﴿آلآنَ﴾ أظهرت ما كنت قبل علمته ﴿وَقَدْ عَصَيْتَ قَبْلُ وَكُنتَ مِنَ الْمُفْسِدِينَ ﴿٩١﴾﴾ فى اتباعك: ﴿فَالْيَوْمَ نُنَجِّيكَ بِبَدَنِكَ﴾ فبشره قبل قبض روحه: ﴿لِتَكُونَ لِمَنْ خَلْفَكَ آيَةً﴾ (يونس: ٩٠ - ٩٢) أى لتكون النجاة علامة له، إذا قال ما قلته له النجاة مثل ما كانت لك، إذ العذاب ما يتعلق إلا بظاهرك وقد أريت الخلق نجاته من العذاب فكان ابتداء الغرق عذابًا وصار الموت فيه شهادة خالصة كل ذلك حتى لا ييأس أحد من رحمة الله تعالى: ﴿إِنَّهُ لا يَيْأَسُ مِن رَّوْحِ اللَّهِ إِلاَّ الْقَوْمُ الْكَافِرُونَ ﴿٨٧﴾﴾ (يوسف) والأعمال بالخواتيم، وأما قوله تعالى: ﴿فَلَمْ يَكُ يَنفَعُهُمْ إِيمَانُهُمْ لَمَّا رَأَوْا بَأْسَنَا﴾ (غافر: ٨٥) فكلام محقق فى غاية الوضوح فإن النافع هو الله فما نفعهم إلا الله، وقوله تعالى: ﴿سُنَّتَ اللَّهِ الَّتِي قَدْ خَلَتْ فِي عِبَادِهِ﴾ (غافر: ٨٥) يعنى الإيمان عند رؤية اليأس وإنما قبض فرعون ولم يؤخر فى أجله فى حال إيمانه لئلا يرجع إلى ما كان عليه من الدعوى وأما قوله تعالى: ﴿فَأَوْرَدَهُمُ النَّارَ﴾ (هود: ٩٨) فما فيه نص أنه يدخلها معهم بل قال الله تعالى: ﴿أَدْخِلُوا آلَ فِرْعَوْنَ﴾ (غافر: ٤٦) ولم يقل أدخلوا فرعون، ورحمة الله أوسع من حيث أن لا يقبل إيمان المضطر وأى اضطرار أعظم من اضطرار فرعون فى حال الغرق والله تعالى يقول: ﴿أَمَّن يُجِيبُ الْمُضْطَرَّ إِذَا دَعَاهُ وَيَكْشِفُ السُّوءَ﴾ (النمل: ٦٢) فقرن للمضطر إذا دعاه الإجابة وكشف السوء عنه، فلم يكن عذابه أكثر من الغرق فى الماء انتهى كلامه فهل هذا الكلام مقرر أو مردود؟ فما وجه رده؟ قلت: ليس هذا الكلام مقررًا وإن كنا نعتقد جلالة قائله (*) فإن العصمة ليست إلا للأنبياء، ولقد قال مالك ﷺ وغيره:

= كتاب (الفصوص) فإن كان لا كفر فيه فما فى الدنيا كفر نسأل الله العفو والنجاة فواغوثاه بالله، وحكى العلامة ابن دقيق العيد شيخنا أنه سمع الشيخ عز الدين بن عبد السلام يقول عن ابن العربى: شيخ سوء كذاب يقول بقدم العالم ولا يحرم فرجًا، توفى فى ربيع الآخر سنة ثمان وثلاثين وستمائة.

(*) أى جلالة لقائله، وهو رجل ضال مضل قال بالاتحاد والحلول وهو كذاب وكيف رضى الله عنه وقد صرح بإيمان فرعون مع أن الآيات والأحاديث الصحيحة جاءت بكفر فرعون، وأن الله تعالى حكى =

ما من أحد إلا مأخوذ من قوله ومردود عليه إلا صاحب هذا القبر يعنى النبى ﷺ، على أنه قد نقل عن بعض كتب ذلك الإمام أنه صرح فيها بأن فرعون مع هامان وقارون فى النار، وإذا اختلف كلام إمام فيؤخذ بما يوافق الأدلة الظاهرة ويعرض عما خالفها، بل قد مر لك أن الآية وحديث الترمذى الصحيح صريحان فى بطلان الإيمان عند اليأس، فلا يلتفت بعد ذلك إلى ما مر من تأويل: ﴿فَلَمْ يَكُ يَنفَعُهُمْ إِيمَانُهُمْ﴾ (غافر: ٨٥) بأن النافع هو الله وأيضًا فمما يبطل هذا التأويل أن اصطلاح القرآن والسنة إضافة الأشياء إلى أسبابها، فإذا قيل: لا ينفع الإيمان فليس معناه الشرعى إلا الحكم عليه بأنه باطل لا يعتد به، وأى معنى مسوغ لهذا القائل أن يخص نفع الله بهذه الحالة التى هى حالة وقوع العذاب، مع النظر إلى ما هو الواقع الحق من أن الله هو النافع حقيقة فى كل وقت، ولو نفعهم الله لما استأصلهم بالعذاب وقوله تعالى: ﴿وَخَسِرَ هُنَالِكَ الْكَافِرُونَ ﴿٨٥﴾﴾ (غافر) دليل واضح على أن المراد: ﴿فَلَمْ يَكُ يَنفَعُهُمْ إِيمَانُهُمْ﴾ (غافر: ٨٥) أنهم باقون مع ذلك الإيمان على الكفر، وكفى بتفسير أئمة الصحابة والتابعين فمن بعدهم الموافق للحديث الصحيح وللإجماع السابقين الآية بما يوافق ما ذكرناه، وإذا ثبت واتضح أنه لا يصح إيمان اليأس ثبت أن إيمان فرعون لا يصح، على أننا قدمنا أننا لو قلنا بصحة إيمان اليأس فالآية دالة على أنه لا يصح إيمانه أيضًا لعدم إيمانه بموسى وهارون صلى الله عليهما وسلم بخلاف بالسحرة، ومن تأمل صيغة إيمانه مع صيغة إيمانهم المحكيتين عنهم فى القرآن علم اتضاح ما بين الإيمانين فلا يصغ إلى قياس أحدهما على الآخر، وقوله: إنه لجأ إلى ما أعطاه باطنه مما كان عليه من الذلة والافتقار عجيب، وأى ذلة وافتقار كان عليهما باطنه وهو ينكر ربوبية رب الأرباب ويعتقد أنه الإله المطلق والرب الأكبر ويؤذى موسى ويكذبه ويعانده، فهل هو فى ذلك إلا كأبى جهل ومن ثم سماه رسول الله ﷺ فرعون هذه الأمة، وبتسليم أن باطنه كان عليهما فأى نفع لهما مع عدم الإيمان الصحيح، وحمل: ﴿آلْآنَ وَقَدْ عَصَيْتَ قَبْلُ وَكُنتَ مِنَ الْمُفْسِدِينَ ﴿٩١﴾﴾ (يونس) على العتب فى غاية البعد، إذ لو صح إسلامه وإيمانه لكان الأنسب بمقام الفضل الذى طمح إليه نظر الشيخ أن يقال له: الآن نقبلك ونكرمك لاستلزام صحة إيمانه رضا الحق عنه، ومن وقع له ذلك الرضا الأكبر لا يقال له باعتبار

= لنبيه ﷺ كفر فرعون وتكبره وضلاله وجبروته وطغيانه وذلك فى آيات كثيرة ولو كان فرعون آمن لأنزل الله فى كتابه قرآنا يدل على إيمانه بعد كفره، وفى الحديث الذى صح عند الإمام أحمد (٢١٤٤) وغيره أن النبى ﷺ قال: «إن جبريل كان يدس فى فم فرعون الطين مخافة أن يقول: لا إله إلا الله» قال أحمد شاكر: إسناده صحيح.

رعاية مقام الفضل جـوابًا لإيمانه الصحيح ﴿آلآنَ وَقَدْ عَصَيْتَ قَبْلُ وَكُنتَ مِنَ الْمُفْسِدِينَ﴾ (يـونـس) لأن كل أحـد له أدنى رؤية وسليـقة يقطع بأن هذا الخـطاب إنما يخـاطب به المغضوب عليه لا المرضى عنه وتخصيص: ﴿ وَكُنتَ مِنَ الْمُفْسِدِينَ﴾ (يونس) بما مر يأباه هذا البيان الذى تقرر لأنه إذا صح إيمـانه محى عنه ما عصاه وأفسده فى أتبـاعه وغيرهم، فكيف مع ذلك المحـو العظيم يعاتب ويخاطب بذلك التـأنيب المحض والتقـريع الصرف والتوبيخ الحق، فلم يكن هذا إلا لإقامة أعظم نواميس الغضب عـليه وتذكيره بقبائحه التى قدمها وإعلامه بأنها هى التى منعـته عن النطق بالإيمان إلى آخر رمق منه، فلم ينفعه النطق بها حينئذ سيما وهو باق على تكذيبه برسوله وعناده لآياته وإعراضه عن جنابه، وتخصيص النجاة بالبـدن أعظم وأعدل شاهد علـى أنه لم يرد بها إلا ما قـاله المفسـرون وأطبق عليه المعتـبرون من أنهم لم يصدقوا بغرقه سـيما مع دعواه الإلهية وإن مـثله لا يموت، فألقى بنجوة من الأرض أى ربوة مرتفعة وعليه درعه ليعرف بها، والعرب تطلق البدن على الدرع وكانت له درع يعـرف بها، ويؤيده القراءة الشـاذة: (بأبدانك) أى دروعك، لأنه كان يلبس كثيرًا منها خوفًا على نفـسه، أو وهو عريان لا شىء يستره أو أنه بدن بلا روح، ولا تنافيه القراءة المذكـورة لأنه عليها جعل كل جـزء من بدنه بدنًا على حد شابت مفـارقه، وقرئ شاذًا أيضًا: (ننحيك) بالحاء المـهملة، أى نلقيك بناحية مما يلى البحـر، قال المفسرون: رماه إلى جانب البحر كالثور ليكون لمن خلفه من بنى إسرائيل وغيرهم علامة على أن مثله ممن تجبـر وتكبر على الله لا بد وأن يقصم ويؤخذ على غاية من الذلة والمـهانة، لينزجر الناس عن طريقته، مع ما فى تخصيـصه من بين سائر قومه بالإخراج من الدلالة على باهر قدرة الله تعـالى وصدق موسى فيـما جاء به، ثم ختم تعـالى هذا المقام بقوله عـز قائلاً: ﴿وَإِنَّ كَثِيراً مِّنَ النَّاسِ عَنْ آيَاتِنَا لَغَافِلُونَ ﴿٩٢﴾﴾ (يـونـس) زجرًا لهـذه الأمة المحـمدية عن الإعراض عن الدلائل وبعثًا لهم على التأمل فيها والاعتبار بها كما قال تعالى: ﴿لَقَدْ كَانَ فِي قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لِّأُوْلِي الأَلْبَابِ﴾ (يوسف: ١١١).